دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

وباء التيفوس في مدينة الدار البيضاء
زمن الحماية ١٩١٢ - ١٩٥٦

د. مصطفى الزعير
دكتوراه التاريخ المعاصر جامعة الحسن الثاني
أستاذ الاجتماعيات بالسلك الثانوي التأهيلي
الدار البيضاء – المملكة المغربية

مُلَخّص

تُعَدّ الأمراض والأوبئة من أهم التحديات التي واجهت الإنسانية عبر تاريخها، ولم يظل المغرب والمغاربة بمنأى عنها، بل عانوا بدورهم من قسوتها، وتجرعوا مرارة تداعياتها الخطيرة، مما خلف هزات قوية شملت مختلف المستويات، حيث عرقلت تطور الاقتصاد والمجتمع المغربي، وأحدثت شرخًا في ذهنية المغاربة، وساهمت بشكل كبير في تأخر الدولة عن مصاف مجموعة من البلدان. وقد عرفت فترة الحماية بدورها تكرار موجات الأمراض والأوبئة بالمغرب، على غرار وباء التيفوس الذي شملت موجاته كل أنحاء المغرب أحيانًا، واقتصرت على مناطق محدودة أحيانًا أخرى، غير أن مدينة الدار البيضاء لم تسلم من مختلف أوبئة التيفوس خلال هذه المرحلة، وذلك بفعل موقعها الاستراتيجي، والأهمية الاقتصادية لمينائها، وكذا ارتفاع عدد سكانها وتعدد أصولهم وجنسياتهم، مما يساهم في انتشار العدوى بسرعة. وحصد وباء التيفوس العديد من الأرواح بمدينة الدار البيضاء، وأثار الخوف والرعب في نفوس المغاربة والأوربيين، الأمر الذي أجبر سلطات الحماية على التدخل لمحاولة التصدي له والتخفيف من أثاره في إطار السياسة الصحية الكولونيالية بالمغرب، ولاسيما أن مكافحة الأوبئة شكلت إحدى الاهتمامات الكبرى لسلطات الحماية، لارتباطها الوثيق بالبعد الإنساني الذي بنت عليه مشروعيتها الإمبريالية، واعتبارها وسيلة فعالة للتغلغل واستقطاب المغاربة وتحقيق التهدئة. استنادًا على الاعتبارات السابقة، ارتأينا تسليط الضوء على موضوع وباء التيفوس بمدينة الدار البيضاء زمن الحماية، وذلك من خلال إبراز أهم أوبئة التيفوس التي عرفتها المدينة زمن الحماية الفرنسية، والعوامل المفسرة لتكرارها بشكل دوري، وكذا الآثار الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عنها، إضافة إلى التدابير والإجراءات التي اتخذتها سلطات الحماية لتفادي الوباء من جهة، والتخفيف من انعكاساته الوخيمة من جهة ثانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ يوليو ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٠٧ أغسطس ٢٠٢٤

كلمات مفتاحية:

الوباء؛ التيفوس؛ الدار البيضاء؛ الحماية؛ التاريخ المعاصر؛ تاريخ الأمراض والأوبئة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2024.301245.1145

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مصطفى الزعير. "وباء التيفوس في مدينة الدار البيضاء زمن الحماية ١٩١٢- ١٩٥٦"- دورية كان التاريخية- السنة الثامنة عشرة- العدد السابع والستون؛ مارس ٢٠٢٥. ص ١٢٨ – ١٤١.

Corresponding author: mustaphaezzair@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كَان التَّارِيْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

عرف المغرب على امتداد تاريخه العديد من الأمراض والأوبئة على غرار الطاعون والجدري والتيفوس، واكتسح هذا الأخير المغرب بشكل كبير خلال القرن التاسع عشر ومطلع العشرين، وزاد الأمر بعد فرض معاهدة الحماية، حيث عاث الوباء في المغرب، وتكررت موجاته بشكل دوري بفعل توالي سنوات القحط والجفاف، وقد حصد العديد من الأرواح، مما أثار الخوف والرعب في نفوس المغاربة والأوربيين.

وتُعَدّ مدينة الدار البيضاء أكثر المناطق المغربية تضررًا من وباء التيفوس زمن الحماية، بحكم موقعها الجغرافي كنقطة ربط بين شمال وجنوب المغرب، وأهمية مينائها الذي شكل البوابة الرئيسية للمغرب، وكذلك هيمنتها على النشاط الاقتصادي، إضافة إلى ارتفاع عدد سكانها سواء المغاربة أو الأجانب. وقد أحدث تعاقب هذا الوباء أثارًا اقتصادية وديموغرافية على المدينة، مما أجبر سلطات الحماية على اتخاذ عدة تدابير بهدف الوقاية منه ومواجهته. تسلط الدراسة الراهنة الضوء على وباء التيفوس بمدينة الدار البيضاء زمن الحماية الفرنسية من خلال الإجابة على التساؤلات التالية: ما هي أهم دورات التيفوس بمدينة الدار البيضاء؟ وما أبرز عواملها وآثارها؟ وأخيرًا ما هي أهم التدابير المتخذة لوقاية المدينة من هذا الوباء والتصدي له؟

أولاً: التيفوس بالدار البيضاء زمن الحماية

١/١-تعريف التيفوس

حمى حادة وبائية معدية سريعة الانتشار، وتسمى أيضًا حمى السجون وحمى المجاعات، وهو مرض يصيب جميع البلدان، والرجال والنساء وخاصة الفئات العمرية بين العشرين والأربعين، في المقابل قليل الظهور لدى الأطفال دون الخامسة من العمر، كما يظهر هذا الوباء في مختلف فصول السنة[١]. وقد عرفته جريدة السعادة بما يلي: "التيفوس من الأمراض الخبيثة الطبع المهلكة للبشرية (...) فما نزل بقوم إلا وخرت قواهم"[٢]. وتتسبب فيه جرثومة صغيرة جدا تسمى "ركتس بروفاتسكي" نسبة إلى العالمين الأمريكي" ركتس" (Rickets)والنمساوي "بروفاتسيك" (Prowaceki) اللذان اكتشفا هذا الميكروب، وتنتقل العدوى من المرضى إلى الأشخاص السليمين عبر القمل[٣]، حيث تلسع القملة الشخص فيحك المكان بأظافره، مما يحدث خدوشا في الجلد، تمكن الميكروبات من ولوج جسمه عن طريقها، فيصير مصابا بالتيفوس[٤]. وتصل مدة المرض تقريبا إلى أسبوعين، وتتعدد أعراضه:

- الأسبوع الأول: يتميز بعدة أعراض أهمها، ارتفاع درجة الحرارة، وصداع شديد في الرأس، وألم في الجسم، وسرعة دقات القلب، وكذلك جفاف اللسان، واحمرار الوجه، واحتقان العينان، وتضخم الطحال، والغثيان، وأيضًا فقدان الشهية، وقلة البول وغمق لونه، والإصابة بالإمساك وهذيان نتيجة الحمى، ثم يظهر طفح التيفوس على بطن المريض وصدره في البداية وهو عبارة عن نقط حمراء تبعد عن بعضها البعض سنتيمترا أو سنتيمترين، وتنتشر بسرعة في ظرف يومين أو ثلاثة أيام في باقي أعضاء الجسم وخاصة الأعضاء السفلى والذراعين، ونادرا ما يظهر على الوجه والعنق.

-الأسبوع الثاني: يُعَدّ حاسمًا في تحديد مصير المريض، إذ إما تتفاقم أعراض المرض، حيث يصاب المريض بهبوط حاد، وترتفع درجة حرارته بشكل أكبر، كما يسرع نبض القلب والذي يصل ما بين ١١٠ و١٢٠ دقة في الدقيقة، ويزرق الوجه، وأيضًا ينحبس البول ويشتد الهذيان هذا من جهة، أو تنخفض درجة الحرارة في أواخر هذا الأسبوع، ويستفيق المريض، ويشعر بالتحسن من جهة ثانية[٥].

٢/١-توالي التيفوس بالدار البيضاء زمن الحماية

(٢/١) ١-تيفوس: ١٩١٣ – ١٩١٤

يُعَدّ أول تيفوس بالمغرب زمن الحماية، نتج عن الجفاف الذي عم البلاد خلال هاتين السنتين، حيث انخفضت كمية التساقطات بمجموع مناطق المغرب وعلى رأسها مدينة الدار البيضاء التي عرفت كمية تساقطات بلغت ١٩٦ ملمتر فقط، في حين يصل المعدل السنوي للأمطار المدينة ٤٠٦ ملمتر، أي ما يمثل تراجعًا بحوالي ٥٢%، مما خلف أزمة فلاحية كبيرة، وكادت الأمور تأخذ منحى أكثر خطورة بسبب هذا الوضع، لكن

التساقطات المهمة التي عرفتها المدينة سنة ١٩١١ والتي بلغت ٦١٩ ملمتر وسنة ١٩١٢ التي سجلت ٤٣٩ ملمتر، وفرت كميات مياه مهمة، مكنت من تعويض الضعف الشديد للأمطار سنة ١٩١٣ [٦].

وقد عاش المغرب خلال هاتين السنتين أوضاعًا جد مزرية اقتصاديًا واجتماعيًا، خصصت لها جريدة السعادة حيزًا من صفحاتها، إذ أوردت: "لقد بلغت الحالة الاقتصادية بالمغرب أقصى درجات الضيق لأن النحل الذي نزل بالغلال منذ عامين والثورات الماضية تركت المغاربة على بساط الفقر، ثم انحبس المطر ونفد الزرع وجف الضرع ونشفت الينابيع وأجدب المرعى وماتت البهائم جوعا وفر الفلاحون من الداخلية إلى المراسي يطلبون الأرزاق"[٧].

اضطرت هذه الظروف المزرية العديد من سكان البوادي إلى الهجرة نحو المدن، فانتشر التيفوس خلال شتاء سنتي ١٩١٣ و١٩١٤ بفاس ومكناس وسلا والجديدة، لكن ذروته سجلت بالرباط والدار البيضاء، حيث عرفت هذه الأخيرة خلال الخمسة الأشهر الأولى من سنة ١٩١٤ تسجيل ٦٠٠ إصابة في صفوف المغاربة و٢٠٠ لدى الأوربيين. ولم يخلف هذا الوباء إصابات فقط بالدار البيضاء، بل أدى إلى العديد من الموتى قدروا بالمئات سنة ١٩١٣، وخلال الفترة الممتدة بين نونبر ١٩١٣ ومارس ١٩١٤ راح ضحيته حوالي ٣٠٠٠ شخص ما بين مغاربة وأوربيين[٨].

لقد كان تيفوس ١٩١٣- ١٩١٤ حدثًا مأساويًا على المغاربة والأوربيين بالدار البيضاء وعلى رأسهم الأطقم الطبية، إذ تكدست حالات المصابين وجثث الموتى بالطرق في مشهد درامي بسبب سرعة تفشي الوباء، واستعمال وسائل بدائية كالعربات في نقل المرضى، وكذا قلة الأدوية. وقد وصف الصحفي الفرنسي "كريستيان هويل" (Christian Houel) هول هذا الوباء بمدينة الدار البيضاء قائلاً: "كشفت لي زيارة الدكتور "أزيمار" (Azemar) مدى تفشي الوباء فأدخلني خادمه إلى غرفة الطبيب طريح الفراش مع حمى تزيد عن أربعين درجة. قال لدي التيفوس (...) وباء التيفوس ينتشر بسرعة إذا لم نتخذ إجراءات فورية للحد منه فسينهي حياتنا جميعا (...) لقد أودى وباء التيفوس بحياة العديد من الأوربيين (...). غادرنا ساحة فرنسا فجرا بقيادة ممرضين على متن عربتين إحداهما للأحياء وأخرى للأموات، بمجرد وصولنا إلى طريق مديونة، صادفنا جسدا جامدا ملقى على الرصيف، إنه رجل ميت أمسكناه من رأسه وقدميه وحملناه إلى العربة تاركا على الرصيف بقعة مبللة لم أدري ما هي. وفي منطقة بعيدة من ذلك المكان أجساد أخرى تنهض من الأرض ووجوههم تتلوى من الألم وأوعيتهم متسعة بسبب الحمى، يستمر الحصاد ١٢ مصاب بالتيفوس لا يزالون على قيد الحياة التقطنا ٦ قتلى.(...) لم يكن هناك علاج آخر بسبب قلة الموارد المالية غير الكينين، وقد رفض ثلاث أرباع المرضى تناوله لأنهم لا يثقون في أدويتنا. نمر مع الممرضين بين الأجساد الممدودة من أجل سحب الموتى وحين امتلأت العربة الأولى بالفعل بدأنا في حملهم على العربة المخصصة للأحياء[٩]". وتبرز هذه الشهادة الوضع المأساوي الذي عرفته مدينة الدار البيضاء خلال وباء التيفوس سنتي ١٩١٣ و١٩١٤، فقد أثار الرعب في النفوس وجعل السكان في حيرة من أمرهم بفعل خطورته لاسيما في ظل قلة الموارد المالية المرصودة لمكافحته.

(٢/١) ٢-تيفوس ١٩٢٠-١٩٢١

انطلق هذا التيفوس من المنطقة الشرقية للمغرب، إذ ساهم دور تازة كممر استراتيجي[١٠]، وضيق المعيشة في ظهور إصابات بالحمى التيفوسية[١١]، وانتقل من تازة إلى مختلف مناطق المغرب[١٢]، ثم وصل لمدينة فاس ونواحيها، حيث ظهرت بعض الإصابات في سجن باب الدكاكين[١٣]. في حين ظهرت أولى الحالات بمدينة الدار البيضاء بسجن علي مومن وانتشرت العدوى بالمدينة[١٤]، كما برزت بعض الحالات الأخرى في مقالع الحجارة وأوراش العمل نتيجة اختلاط العمال السجناء مع غير السجناء، وساهم هؤلاء بدورهم في نشر العدوى بين عائلاتهم، مما أدى إلى ارتفاع عدد الحالات إلى ٨٦ حالة، توزعت بين ٦١ إصابة في صفوف السجناء، وحالة واحدة لدى العمال، إضافة إلى ٢٤ حالة متفرقة بالمدينة. وقد ساهم في تفشي هذا الوباء وارتفاع عدد المصابين عدة عوامل، على غرار الازدحام، وقلة الماء، وكذا البؤس،

إضافة لاستقرار السكان في بيوت قليلة الهواء والنور، وأيضًا عدم الالتزام بالتدابير الوقائية[١٥].

(٢/١) ٣-تيفوس ١٩٢٧-١٩٢٨

نتج تيفوس ١٩٢٧- ١٩٢٨ عن جفاف حاد شمل مختلف مناطق المغرب لاسيما الجنوبية، وخلف مجاعة بفعل قلة المحاصيل، مما أجبر العديد من السكان على مغادرة مناطقهم والنزوح نحو المناطق الشمالية، فأدى هذا الأمر إلى تفشي الوباء وانتشاره بمختلف مناطق المغرب، ومن بينها الدار البيضاء التي انطلقت العدوى فيها من سجن علي مومن، وامتدت إلى المناطق المحيطة بالمدينة، فأضحت بذلك بؤرة رئيسية للوباء، وخاصة في ظل الحركية الهامة التي تربطها بضواحيها[١٦]. وخلف هذا التيفوس العديد من الإصابات بمختلف المناطق المغربية خاصة بالمدن الكبرى مثل مراكش التي بلغ عدد المصابين بها ٢٤٧٩ حالة، ويعزى تفاقم عدد الحالات بها إلى هجرة السكان نحوها من المناطق الجنوبية مركز انطلاق هذا الوباء، وتلتها مدينة الدار البيضاء بمجموع ١٦٦٧ إصابة خلال سنتي الوباء، وذلك ما يبرزه الجدول التالي:

جدول رقم (١)

توزيع حالات التيفوس بالمغرب **1927**-١٩٢٨[١٧]

المنطقة	عدد الحالات المسجلة	المنطقة	عدد الحالات المسجلة
الدار البيضاء	١٦٦٧	وجدة	١٠٩
الرباط	٣٩٦	مراكش	٢٤٧٩
الغرب	١١٤	أسفي مع عبدة وشياظمة	٢٣٦
مكناس بما في ذلك أقاليم تافيلالت والأطلس المتوسط.	٢٩٧	مازغان	٢٢٧
فاس	١٢٦	تازة	٢٧

(٢/١) ٤-تيفوس ١٩٣٧-١٩٣٨

عرف النصف الثاني من الثلاثينات أزمة حادة بالمغرب، فقد اتسمت سنة ١٩٣٥ بنقص المحاصيل وارتفاع أسعار المواد الغذائية، وساد الجفاف بالشمال المغربي سنة ١٩٣٦، ولم يحصل الفلاحون حتى على ما زرعوه سنة ١٩٣٧ من بذور بالمغرب الشرقي وفي كل مناطق جنوب مراكش سواء الحوز وسوس ودرعة وتافيلالت، إضافة إلى ذلك عم الجفاف مختلف مناطق المغرب سنة ١٩٣٨ باستثناء المناطق الشمالية، فقلت المحاصيل وهلكت الماشية وظهر التيفوس. وقد أدى هذا الوضع المزري إلى هجرة موجات بشرية من المعوزين نحو المناطق الشمالية للعمل في الأراضي الفلاحية أو نحو المدن التي توفر فرص الشغل، وحملت هذه المجموعات من النازحين الوباء، تاركة في طريقها ضحايا الجوع والوباء من مرضى وقتلى وتكدست في ضواحي المدن وفي هذا الصدد أورد ألبير عياش: "كانت هذه المجموعات الحاملة للوباء (...) تعلم بالجثث بالطرق التي تسلكها. وتضخمت الأحياء المحيطة بالمدن واتسعت رغم جهود السلطات في محاصرة هذا المد[١٨]". وقد عم هذا التيفوس مختلف المناطق المغربية، لكن سجلت أعلى معدلات الإصابة بمدينتي مراكش والدار البيضاء، وذلك ما يبرزه الجدول التالي:

جدول رقم (٢)

توزيع الإصابات بتيفوس ١٩٣٧-١٩٣٨[١٩]

المنطقة	عدد الحالات المسجلة	المنطقة	عدد الحالات المسجلة
الدار البيضاء	٢٩٥٢	وجدة	٦٥
الرباط	٥٨٩	مراكش	٤٣١١
الغرب	١٢٩	أسفي مع عبدة وشياظمة	٢٢٤
مكناس بما في ذلك أقاليم تافيلالت والأطلس	١٢٨	مازغان	٣٨٠

المنطقة	عدد الحالات المسجلة	المنطقة	عدد الحالات المسجلة
المتوسط			
فاس	٤٠٢	حدود درعة	٢٥
تازة	٧٦		

لقد تفشى التيفوس بالدار البيضاء في دجنبر١٩٣٧، وبلغ ذروته في مارس من سنة ١٩٣٨، واستمر إلى غاية يونيو من نفس السنة، وانتشر بالشاوية ودكالة بفعل الاتصالات المباشرة والمتعددة بين هذه المناطق ومدينة الدار البيضاء[٢٠]. وقد خلف هذا الوباء أثارا سلبية على ساكنة المدينة.

جدول رقم (٣)

عدد حالات التيفوس المعلنة

من فاتح أكتوبر ١٩٣٧ إلى ٣٠ شتنبر ١٩٣٨ بالمكتب الصحي للدار البيضاء[٢١]

الشهور	المغاربة		الشهور	المغاربة	
	الأوربيون	يهود ومسلمون		الأوربيون	يهود ومسلمون
أكتوبر	٠	٠	أبريل	٣٨	٦٦
نونبر	١	١٥	ماي	١٩	٣٥
دجنبر	٤	٧٢	يونيو	٩	٤٢
يناير	١٣	٣٩	يوليوز	٣	١٤
فبراير	٢٧	٦٣	غشت	٢	٥
مارس	٤٣	١٩١	شتنبر		

لم يخلف هذا الوباء إصابات فقط في صفوف سكان الدار البيضاء، بل تعدى الأمر، حيث حصد العديد من القتلى خاصة في صفوف المغاربة. وفيما يلي عدد الوفيات بالتيفوس بالدار البيضاء سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨.

جدول رقم (٤)

العدد التقريبي لوفيات التيفوس بالدار البيضاء سنتي ١٩٣٧ و١٩٣٨[٢٢]

السنوات	المسلمون	اليهود
١٩٣٧	٩٨٢	١٤٩
١٩٣٨	١٩١٩	٢٥٧

لقد أضحى هذا الوباء عاملاً أساسيًا من عوامل وفاة سكان المدينة، وعنصرًا مهمًا في تحديد معالم النمو الديموغرافي، إذ لم يخل شهر واحد خلال سنتي الوباء من وفاة عدد من سكان المدينة بسببه، فقد شهدت سنة ١٩٣٧ حوالي ٤٨٢٣ وفاة في صفوف المغاربة، من بينها ٣٥٧ وفاة نتيجة وباء التيفوس، توزعت عبر أشهر السنة كالأتي:

جدول رقم (٥)

عدد الوفيات المغاربة بالدار البيضاء سنة ١٩٣٧[٢٣]

الشهور	عدد حالات التيفوس المصرح بها				المجموع
	عدد الوفيات		المسلمون	اليهود	
	المسلمون	اليهود			
يناير	٢١٧	٦٤			
افبراير	١٨٧	٥٩			
مارس	٢٨٥	٨٥	٢		٢
أبريل	٢٤١	٦٧	٥		٥
ماي	٢٧٣	٤٦	١٥٦	٣	١٥٩
يونيو	٢٩٦	١٠٠	١٢٧	٩	١٣٦
يوليوز	٣٧٩	١٣٨	٢٣	٠	٢٣
غشت	٤٢١	٩٦	٩	٢	١١
شتنبر	٢٩٧	٧١	٨	٠	٨
أكتوبر	٣٥٤	٦٧	١	٠	١
نونبر	٤٢٢	٧٤	١	٠	١
دجنبر	٥٠١	٨٣	٧	٦	١٣

وعرفت سنة ١٩٣٨ ما مجموعه ٥٦٨٤ وفاة بمدينة الدار البيضاء في صفوف المغاربة، من بينها ٥١٥ وفاة بفعل وباء التيفوس، توزعت عبر الأشهر العشرة الأولى من السنة على الشكل التالي:

جدول رقم (٦)
عدد الوفيات المغاربة بالدار البيضاء
خلال الأشهر العشرة الأولى من سنة ١٩٣٨[٢٤]

الشهور	عدد حالات التيفوس المصرح بها			
	عدد الوفيات		المسلمون	اليهود	المجموع
	المسلمون	اليهود			
يناير	٥٩٣	١٢٧	٤١	٢	٤٣
فبراير	٦٦٢	١٢٦	٤٨	١٠	٥٨
مارس	٤٤٣	٩٢	١٤٧	٢٨	١٧٥
أبريل	٥٥٣	١٢٢	٧٩	١٥	٩٤
ماي	٥١٧	١١٨	٣٦	٢١	٥٧
يونيو	٤٤٨	١١١	٢٨	٢٢	٥٠
يوليوز	٣٩٨	١٠٠	١٤	١٢	٢٦
غشت	٣٣١	١٣٠	١٠	١	١١
شتنبر	٣٣٠	٩٧	١	٠	١
أكتوبر	٣٢٥	٦١	٠	٠	٠

غير أن هذه الأرقام تظل نسبية، ويعزى ذلك لندرة بلاغات المغاربة سواء المسلمين أو اليهود عن حالات التيفوس، فقد كانوا يحرصون على إخفائها، مما استحال معه تحديد الرقم الدقيق للحالات والوفيات الناجمة عن هذا المرض من طرف السلطات الصحية[٢٥]. وعلى عكس ذلك كان الأوربيون يصرحون بحالات الإصابة بالتيفوس لمكتب الصحة بالمدينة من أجل تلقي العلاج وحماية أنفسهم من خطره، فقد بلغ عدد الأوربيين المصرحين لمكتب الصحة بالدار البيضاء خلال هذا الوباء ما يلي:

جدول رقم (٧)
عدد حالات ووفيات الأجانب
بمدينة الدار البيضاء خلال تيفوس ١٩٣٧ – ١٩٣٨[٢٦]

السنوات	عدد الحالات	عدد الوفيات
١٩٣٧	٢٦	٩
١٩٣٨	١٥٥	٥١

وقد ساهم النشاط المهني بشكل أساسي في إصابة الأوربيين بالوباء، فقد كان معظمهم عاملون في المجال الطبي من أطباء وممرضين، ومصففي الشعر لاسيما في وسط الفقراء، وكذا عمال المنازل، وكذلك الذين يترددون على مناطق استقرار المغاربة، ناهيك عن كبار السن وخاصة المصابين بأمراض مزمنة والذين شكلوا ثلثي الوفيات[٢٧]. ومثل الفرنسيون نسبة ضئيلة من عدد الوفيات، فقد عرفت مدينة الدار البيضاء خلال الفترة الممتدة ما بين شهر دجنبر ١٩٣٧ وماي ١٩٣٨ وفاة ٢٨ فرنسي من مجموع ٤٥٠٠٠ و٢٠ أجنبي من مجموع ٢٦٠٠٠ فقط. ويرجع هذا التفاوت لاختلاف أسلوب العيش بين الفرنسيين وباقي الأوربيين، وخاصة الإسبان والبرتغاليون والإيطاليون، والذين ينتمون في الغالب إلى الطبقة الفقيرة، ويعيشون في اتصال وثيق مع المغاربة، كما يتشاركون معهم عاداتهم[٢٨].

(٢/١) ٥-التيفوس بالدار البيضاء خلال الحرب العالمية الثانية

أدت ظروف الحرب العالمية الثانية إلى حدوث نقص حاد في المواد الغذائية خاصة الأساسية منها، مما جعل سلطات الحماية تقوم بتقنينها، إضافة إلى شح كبير في ووسائل التنظيف بالمغرب، فترتب عن ذلك تهيئ الظروف المواتية لظهور موجات من وباء التيفوس، فتكت بالمغاربة مستغلة ظروفهم المزرية ماديًا ومعنويًا.

وانطلق هذا التيفوس من الحدود المغربية الجزائرية، ووصل إلى المنطقة الشرقية، ثم تازة وفاس ومكناس، ومن ناحية أخرى إلى تافيلالت، في حين لم يمس الجنوب الغربي للمغرب على عكس الفترات السابقة التي كانت خلالها أكثر المناطق تضررا.[٢٩]. وسلك هذا التيفوس طريقا مشابها لتيفوس ١٩٢٠، حيث انتشر من الشرق نحو الغرب وهو أمر مخالف لمعظم أوبئة التيفوس بالمغرب والتي انطلقت من الجنوب نحو الشمال[٣٠].

وقد عرفت سنة ١٩٣٩ إصابة ١١٠٠ حالة معظمها في صفوف المغاربة، وسجل١٠٧١ منها خلال النصف الأول من السنة، في حين لم يعرف النصف الثاني سوى ٣٩ إصابة، حظيت الشاوية بنصيب مهم ضمنها بلغ ٤٩١، أي ما يمثل تقريبًا نصف عدد المصابين، متجاوزة

بكثير مدينة مراكش التي احتلت المرتبة الثانية بحوالي ١١٥ مصاب، في حين وصل عدد الحالات بالرباط ١٠٦[٣١]. وشهدت سنة ١٩٤١ ارتفاع شدة الوباء وتزايد عدد الحالات بالمغرب، حيث بلغت ١٦٦٧، شملت مختلف مناطق المغرب. ويبين الجدول أسفله ذلك بجلاء.

جدول رقم (٨)

توزيع حالات التيفوس بالمغرب سنة ١٩٤١[٣٢]

المناطق	الحالات	المناطق	الحالات
تازة	٥٧٤	الشاوية	١٥٧
فاس	٢٣٥	الدار البيضاء واد زم	١٢
تافيلالت	١٢٥	مازغان	٤
مكناس	٤٥	أسفي الصويرة	٤
الغرب	٤٥	مراكش	١٧
الرباط	٣٣	أكادير	٣

وقد أدى تدني الأوضاع الاقتصادية بالمغرب سنة ١٩٤٢ إلى نقص المواد الأساسية، فاضطر المغاربة للانتظار فترات طويلة في صفوف ممتدة أمام متاجر المواد الغذائية، وزاد الأمر سوءا بفعل قلة الملابس وأدوات التنظيف كالصابون والمواد المضادة للطفيليات، ناهيك عن تعدد الاحتكاكات في وسائل النقل العمومية، مما وفر الظروف المواتية لتفشي التيفوس، حيث ارتفع عدد المصابين سنة ١٩٤٢ إلى ٢٨٨٠٢ حالة من بينها ٥٥٦ أوربي، وسجلت معظم الإصابات بمنطقة الشاوية[٣٣]. وتوزعت على الشكل التالي:

جدول رقم (٩)

توزيع حالات التيفوس بالمغرب سنة ١٩٤٢[٣٤]

المناطق	عدد الحالات	المناطق	عدد الحالات
وجدة	٢٥٦٥	أكادير	٨٠٨
تازة	٣٣٣٠	ورزازات	٢٠٠
فاس	٣٧٠٠	أسفي-موكادور	١٠١
تافيلالت	٢٠٨٩	مراكش	٦٥١
مكناس	٢٧٣٤	دكالة	٥٤١
الغرب	٣٣٢٦	الدار البيضاء-وادزم	٨٠٤
الرباط	٤٥٧٧	الشاوية	٣٣٧٦
المجموع	٢٨٨٠٢		

بلغ عدد المصابين بالدار البيضاء سنة ١٩٤٢ حسب مكتب الصحة ٣٢٠ حالة من بينها ٣٦ يهودي و٥٦ أوربي. أما على مستوى الأحياء، فقد عرفت المدينة القديمة ٧٠ حالة، والمدينة الجديدة ٨٢ إصابة، في حين سجلت الأحياء الخارجية للمدينة ١١٤ حالة، وبلغ عدد الوفيات ٦٣، من بينهم ٤٧ مسلم، و٧ يهود، و٩ أوروبيين[٣٥]. لكن سرعان ما انخفضت أعداد المصابين سنة ١٩٤٣ إلى ١٦١٩١ حالة، سجلت معظمها بالشاوية والدار البيضاء. ويوضح الجدول أسفله ذلك.

جدول رقم (١٠)

توزيع حالات الإصابة بالتيفوس سنة ١٩٤٣[٣٦]

المناطق	عدد الحالات	المناطق	عدد الحالات
الشاوية	٣٣٢٩	فاس	١٥٢٤
الدار البيضاء دكالة	٦٥٩	وجد تازة	٦٢٥
وادزم	٢٥١٠	مراكش	٥١
الرباط	٧٢٢	ورزازات	٤٢٥
الغرب	٥٧٢	أسفي الصويرة	١٢٥٣
مكناس تافيلالت	١٠٣٥	أكادير	٢٢٣
المجموع	١٦١٩١		

واصل وباء التيفوس فتكه بالمغاربة خلال سنة ١٩٤٥ لاسيما في ظل سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

بفعل الحرب العالمية الثانية، والاستنزاف الاستعماري للمغرب، مما أدى لموجة من الهجرة نحو المدن الكبرى كالدار البيضاء، فعم الوباء مختلف المناطق، ونالت منطقة الشاوية حصة الأسد من الإصابات، يتضح ذلك جليًا من خلال الجدول التالي:

جدول رقم (١١)

توزيع حالات الإصابات بالتيفوس سنة ١٩٤٥[٣٧]

المناطق	عدد الحالات	المناطق	عدد الحالات
الشاوية	٢٣٢٧	فاس	٨١٠
الدارالبيضاء دكالة	١٢	وجد تازة	١٢٤
وادزم	٧٢٧	مراكش	٥٢
الرباط	٣٧١	مراكش ورزازات	١٠٢٦
الغرب	٣٦	أسفي	١٥٣
مكناس	٤٠٦	الصويرة	١٩٧
تافيلالت	٩١٥	أكادير	٨٣٠

ثانيًا: وسائل الوقاية ومواجهة التيفوس بمدينة الدار البيضاء

أدى توالي وباء التيفوس بالمغرب منذ مطلع الحماية، وحجم الخسائر البشرية التي نتجت عنه، إضافة للرعب الذي خلفه في النفوس، لاتخاذ عدة تدابير وإجراءات بغية الحد منه خاصة في الدار البيضاء، مدينة المال والأعمال، والوجهة الأساسية للأوربيين وفي مقدمتهم الفرنسيين، وقد تنوعت أساليب مكافحته، واتخذت أشكال متعددة، تنوعت بين الإدارية والتحسيسية والطبية، وذلك بهدف سد جميع الثغرات التي من شأنها أن تساهم في انتشاره بالمدينة.

١/٢-الإجراءات الإدارية

(١/٢) ١-تنظيف المدن

بذلت بلديات المدن المغربية وعلى رأسها الدار البيضاء مجهودات كبيرة لتطويق وباء التيفوس زمن الحماية، وذلك عن طريق اتخاذ عدة تدابير من بينها نظافة المدن، وكانت الدار البيضاء سباقة إلى توفير السبل من أجل ذلك منذ مطلع الحماية، حيث عقدت البلدية اتفاقية مع شركة فرنسية سنة ١٩١٤ لجمع أزبال المدينة، وإنشاء البنيات التحتية بالمدينة، وفي هذا الصدد أوردت جريدة السعادة ما يلي: "اجتمع المجلس البلدي وعقد مع كمبانية فرنساوية لأجل تنظيف المدينة ورفع الأزبال منها، ثم بحث المجلس بشأن جر المياه (...)وترصيف الطريق الدائرة بالمدينة وجعل خريطة عمومية للمجاري الحارة والقنوات المؤدية له"[٣٨]. وقد قامت الشركة بالتعاون مع البلدية بتنظيف الطرق والأزقة، ولاسيما التي يسكنها أو يتردد عليها الأوربيون، وتبييض واجهات بيوت هذه المناطق بالجير مرة واحدة كل شهر[٣٩].

كما قامت بلدية الدار البيضاء بمجهودات لتزويد المدينة بالماء الصالح للشرب ومياه الغسيل التي افتقرت لها معظم الأحياء خاصة الصفيحية، مما أعاق ضمان نظافة بدن السكان المغاربة وملابسهم، وساهم في تفشي الأمراض كالتيفوس[٤٠]. وتتمثل تلك الجهود في توقيع اتفاقية مع شركة فرنسية، التزمت بتزويد السكان بالماء بسعر فرنك وثلاثين سنتيما للمتر المكعب دون احتساب النفقات الأخرى اللازمة لإدخال الماء إلى البيوت والمساكن، وكانت هذه الشركة تجلب المياه من مصادر مختلفة، إذ دأبت تزويد المدينة بكمية ١٥٠٠٠ متر مكعب يوميا من عين المعزي، و٢٥٠٠٠ متر مكعبا لإطفاء الحرائق ورش الطرقات من عين مليل[٤١]. إضافة لذلك بذلت البلدية جهدًا كبيرًا للقضاء على السكن الصفيحي بالدار البيضاء[٤٢].

ولم تتوقف جهود البلدية في مجال النظافة عند هذا الحد، بل شملت جميع مرافقها، حيث دعت أصحاب المباني والمحلات التجارية إلى تنظيف الرصيف المجاور لهم مرتين في اليوم بمبيض كريزيل (crésylée) أو ماء

جافيل، بل واصل الأمر إلى إجبار كل من رفض ذلك، ناهيك على تنظيف فنادق ومقاهي المغاربة مرة واحدة على الأقل في الأسبوع من طرف أصحابها أو عمال النظافة بالبلدية، ومراقبة الحمامات التي تعد أكثر أماكن تبادل الطفيليات بفعل الازدحام، كما فرضت البلدية تنظيف المكاتب الإدارية المفتوحة للعموم، وقاعات الحفلات والأسواق مرتين في اليوم، ووسائل النقل العمومية، ومنعت ركوب الأشخاص بمظهر غير نظيف، وعملت على رش جميع الحافلات القادمة من القرى بمبيض كريزيل عند وصولها إلى المرآب، وكذلك وسائل النقل الخاصة كالسيارات[٤٣].

(١/٢) ٢-التطهير والتفلية

ينتقل داء التيفوس عن طريق لسعات القمل الحامل للفيروس من شخص مصاب لآخر، لذلك شنت سلطات الحماية الحرب على القمل[٤٤]، وذلك بواسطة تنظيم عملتي التفلية والتطهير واللتان تعدان الحل الأساسي للوقاية من هذا الوباء، ووسيلة أساسية لا مفر منها مادام القمل يساوي انتقال العدوى[٤٥]، وفي هذا الصدد بذلت مجهودات لإجرائهما بشكل دوري في جميع التجمعات والشركات الكبرى، لاسيما الأفراد الذين يحتكون مع الأوربيين، سواء عمال البيوت، أو ملمعو الأحذية وكذلك الحمالون، حيث حجزت لهم حصص خاصة في مراكز التطهير، على غرار محطة الصحة البحرية بالدار البيضاء التي تقوم بتطهير جميع عمال الميناء والحمالين الذين يستقلون القوارب بانتظام، كما جهزت المدارس والسجون بحمامات للتطهير[٤٦]. ونظرًا لأهمية هذه العملية في صد التيفوس، قررت اللجنة البلدية للدار البيضاء في ٦ ماي ١٩٣٨ حماية المدينة من عودة محتملة له، عن طريق إنشاء ست محطات تفلية بكل من عين الشق، وبوسبير خديم، والمدينة الجديدة، والمدينة القديمة (الملاح)، وروش نوار ومحطة الحي الصفيحي.

جدول رقم (١٢)

محطات التفلية بالدار البيضاء[٤٧]

المحطة	التجهيزات	التكلفة المالية
عين الشق	غرفة كبريت لحافلات المغاربة	٣٠٠٠٠
	محطة تفلية	٣٠٠٠٠
	معزل صحي	٧٥٠٠٠٠
بوسبير خديم	شراء معدات التفلية لإزالة القمل	٤٥٠٠٠
المدينة الجديدة	تشييد وتجهيز المحطة	١٤٥٠٠٠
محطة المدينة القديمة (الملاح)	تشييد وتجهيز المحطة	١٤٥٠٠٠
محطة روش نوار	-	-
حي الصفيح	تشييد وتجهيز المحطة	٣٠٠٠٠٠
مجموع المصاريف	١٤٤٥٠٠٠	

وبلغ عدد التفليات بالمغرب ٩٨٤١١٤ وعمليات التطهير ٦١٠٥٦٥ سنة ١٩٣٨[٤٨]، في حين عرفت سنتي ١٩٤١و١٩٤٢ حوالي ١١٣٦٤٨٠ عملية تطهير و١٤٢٠٢٦٧ عملية تفلية[٤٩]. وقامت الصيدلية المركزية بالدار البيضاء بتحضير محلول النيكوتين لاستخدامه لنقع الأغطية والملابس من أجل قتل الحشرات[٥٠].

(١/٢) ٣-منع السكان من الهجرة والإعادة القيسرية

اتخذت سلطات الحماية عدة تدابير لحماية المدن الكبرى وعلى رأسها الدار البيضاء من تدفق السكان القرويين، وتجنب النزوح الجماعي للمعوزين نحوها،

وكذا تثبيت الفلاح وعائلته في البوادي، وفي مقدمتها مكافحة الفقر، ومواجهة أثار الجفاف، وذلك بسن برامج واسعة للأشغال الهيدروليكية تسمح باستخدام جميع المياه المتاحة، ومنح الفلاحين القروض والبذور ووسائل العمل، إضافة إلى فتح الأوراش الكبرى لتوفير فرص الشغل، وتوزيع الطعام على كبار السن الذين لا يستطيعون العمل، كما عملت على مراقبة الهجرة وإيقافها بكل الوسائل، بإصدار تصاريح المرور ووضع حواجز المراقبة عند أبواب المدن[٥١]. ويستشف من هذه التدابير رغبة سلطات الدار البيضاء في منع وصول السكان إليها بشتى الوسائل.

لكن رغم هذه الإجراءات، كان العديد من المهاجرين يصلون إلى الدار البيضاء، لذلك اتخذت السلطات إجراءات على مستوى المدينة لضبطهم وإعادتهم لديارهم، إذ شنت مصلحة الشرطة سلسلة من الاعتقالات في صفوف المتشردين في الشوارع والأزقة، وسهرت على اتخاذ الاحتياطات اللازمة في حقهم، بتغيير ملابسهم، ورش المبيدات الحشرية، وكذا توجيه المتشردين إلى مراكز الشرطة، وعملت على تلقيح جزء منهم في حدود الإمكانيات المتوفرة، وإعادة الغرباء عن المدينة إلى مناطقهم الأصلية بعد وضعهم تحت الملاحظة لمدة ١٨ يومًا على الأقل.

لقد رفعت سلطات الحماية شعار "من الأحياء الفقيرة إلى الحقول"، ونصحت سكان المدن -الفلاحون الجدد- بالعودة إلى الأرض والهواء النظيف، وفي هذا الصدد أوصت بلدية الدار البيضاء بإعادة حوالي ١٣٠٠٠ من سكان المدينة إلى مناطقهم خلال وباء ١٩٣٨[٥٢]، حيث أرسلوا سيرا على أقدامهم في مجموعات تحت مراقبة رجال السلطة الذين يمتطون خيولا، وقد أدى هذا الإجراء إلى إثارة غضب المغاربة وامتعاضهم[٥٣]. وللتخفيف من حدة الاحتقان أصبحت سلطات الحماية تنظم عمليات الإعادة القيسرية للسكان عن طريق قوافل السيارات، وذلك بعد إبلاغ السلطات المستقبلة بعدد العائدين الذين يتوجب استقبالهم ونقلهم إلى المرافق الصحية في المناطق المستقبلة، حيث كان العائدون يوضعون في المخيمات الإقليمية القريبة من هذه المناطق، ويخضعون للمراقبة والتطهير، ويتم إرسال المعوزين إلى قبيلتهم الأصلية، لكن هذا الإجراء لم يشمل المرضى في حالة حرجة. وضمت هذه العملية ثلاث مراحل أساسية: جمع السكان والإيواء والإعادة القيسرية، لذلك سهرت البلدية على تنظيم تفاصيلها بعناية فائقة لتجنب الأخطاء التي من شأنها أن تخلف ردود فعل قوية من طرف السكان[٥٤].

(١/٢) ٤-عزل السكان

قامت سلطات الحماية بعزل السكان كآلية من آليات حماية المناطق المغربية من انتشار وباء التيفوس، حيث دأبت مدينة الدار البيضاء خلال فترات الوباء اعتماد هذه الوسيلة، وذلك منذ تيفوس ١٩١٣، موظفة في ذلك العديد من الأماكن أهمها الفنادق، لكن هذه العملية كانت تتم أحيانا في ظروف غير صحية ولا إنسانية. وقد وصفها هويل بغاية الدقة قائلاً: "في نهاية طريق مديونة (...) يتوقف الموكب (...) عند فندق تحول إلى محجر صحي. أنزلنا المرضى الأحياء وعندما أردت الولوج إلى الفندق تراجعت إلى الوراء من رعب المشهد الرائحة الكريهة والجو نتن من جراء البول والبراز الذي يملأ المكان، كان بالفناء ثلاثون مغربيا يرتدون ملابس بالية يرقدون على حصائر قذرة يقف بعضهم لطلب شرب الماء، والبعض الآخر يتمايل على المقاعد يرددون في لحن حزين اسم الله"[٥٥].

ولكن نتيجة تعاقب الوباء على المدينة، أنشأت السلطات محاجر صحية خاصة بالعزل على غرار محجر العنق الذي لعب دورا أساسيا في عزل المرضى إبان وباء التيفوس سنة ١٩٣٧[٥٦]، ونظرا لأهمية هذه العملية في صد التيفوس قررت اللجنة البلدية بالدار البيضاء في ٦ ماي ١٩٣٨ بناء محجر آخر بعين الشق[٥٧]، وصممت مراكز المساعدة والإيواء وفقا لعدة قواعد أهمها: الفصل الصارم بين الوافدين الذين خضعوا لعملية التطهير وغير المطهرين، والفصل بين الجنسين، كما جهزتها بدوش وفرن وغرفة كبريت[٥٨].

غير أن سلطات الحماية واجهت مشكلا أساسيا بمدينة الدار البيضاء أعاق مجهوداتها لتطويق المدينة من الأوبئة لاسيما التيفوس، تجلى في طبيعة سكانها الذين ينقسمون إلى فئتين، الأولى، السكان الثابتون،

تضم التجار والملاكون والحرفيون والموظفون والمسؤولون وخادمو البيوت والعمال، قطنوا بالمدينة القديمة والدروب المحيطة بها وبجزء من المدينة الجديدة، مزودون بكمية كافية من مياه المغاسل والحمامات ومحطات التطهير، مما سمح لهم بوقاية أنفسهم وجعلهم بمنأى عن العدوى. في حين ضمت الفئة الثانية السكان شبه الرحل وفي مقدمتهم تجار الماشية والحبوب والقماش وسائقو الحافلات والشاحنات بين الدار البيضاء ومختلف المدن، حيث عاش هؤلاء في أحياء الصفيح والدروب المجاورة للمدينة الجديدة .وقد شكلت هذه الفئة الأخيرة خطورة كبيرة على السكان الأوربيين، لذلك سعت البلدية استبعادها من المدينة الأوربية، كما عملت أيضًا على خفض عدد نقاط الاتصال بين السكان المغاربة الثابتون والسكان المغاربة المتنقلون[٥٩].

٢/٢-الإجراءات التحسيسية

عملت سلطات الحماية على توعية وتحسيس السكان بضرورة حماية أنفسهم ومواجهة وباء التيفوس، فقد قامت بنشر مختلف المعلومات حوله لإبقائهم على علم بتطور الحالة الوبائية، ومنعت انتشار الأخبار الكاذبة التي من شأنها أن تخلق جوا من القلق وتخفض الروح المعنوية للسكان، كما دأبت على نصح وتحذير السكان عن طريق المنشورات والملصقات والصحافة والبث الإذاعي، إضافة إلى إلقاء المحاضرات من طرف الأطباء ورؤساء مكاتب الصحة البلدية، ناهيك عن تقديم المدرسين النصح والإرشاد لتلاميذ المدارس الأوربية والمغربية قصد توعيتهم بخطورة وباء التيفوس. ولم تكتف بذلك، بل سعت الوصول إلى أكبر عدد ممكن من المغاربة، لذلك عملت على توعية السكان عن طريق المساجد والأسواق باستخدام مكبرات الصوت والتحدث باللهجة المحلية، مقدمة لهم نصائح حول أساسيات النظافة بعبارات بسيطة. كما قامت باستخدام رواة القصص والتمثيل الصامت والمهرجين الذين قدموا سيناريوهات بسيطة وسهلة الوصول إلى الجماهير. وقد كانت هذه الطرق أكثر نجاعة في إيصال الرسالة المنشودة إلى أكبر عدد ممكن من المغاربة، وأكثر ضمانا من نقلها عبر السلطات المحلية التي يمكن أن تشوه مضمون الرسائل الموكولة إليها عن غير قصد[٦٠].

٣/٢-الإجراءات الطبية

تمثلت الإجراءات الطبية في التلقيح وذلك بغية إيقاف انتشار الوباء، وقد استعان الأطباء بنوعين من اللقاحات ضد وباء التيفوس بالدار البيضاء:

لقاح "جورج بلان" **(G. Blanc):** اخترع من طرف الدكتور جورج بلان مدير معهد باستور بالدار البيضاء، وهو عبارة عن فيروس حي مخفف بمادة صفراء، يحضر قبل ستة أيام من تاريخ استعماله، يتم إعداده في صيغته النهائية ربع ساعة فقط قبل التلقيح من طرف تقني معهد باستور بالمكان المحدد للتلقيح، لذلك استحال تخزينه، ووصلت مدة مناعته ما بين سنة وثلاث سنوات، واتسم بحقنة واحدة فقط، مما سمح بتحضيره بكميات مهمة كافية لتلبية الاحتياجات الكبيرة[٦١]. وتمت التوصية باستخدامه من طرف خبراء الوقاية من التيفوس الذين اجتمعوا بجنيف في ١٠ فبراير ١٩٣٧ تحت إشراف لجنة الصحة التابعة لجمعية الأمم[٦٢].

وانطلق استعماله بالدار البيضاء ابتداء من ماي ١٩٣٧، وخصصت حصص نصف أسبوعية لفائدة الجماهير، إضافة إلى تلقيح عدد قليل من الأفراد في معهد باستور كعمال المنازل والحراس الذين لم يستفيدوا بعد من حصص التلقيح بالأحياء. وأعطيت الأولوية لتلقيح السكان الأكثر عرضة للعدوى وفي مقدمتهم المغاربة لاسيما ملمعو الأحذية والحمالون بأسواق المدينة وعمال البلديات والكناسون وناقلو المياه والمعوزون وقاطنو دار الأيتام، إضافة للأوربيون الأكثر اتصالا بالمغاربة وعلى رأسهم الأطباء والممرضين[٦٣].

ووضعت سلطات الحماية برنامجا للقاح استهدف المناطق الموبوءة سنة ١٩٣٧، وحظيت خلاله مدينة الدار البيضاء بالنصيب الأكبر، فقد شهد شهر فبراير ومارس سنة ١٩٣٧ تلقيح ١٣٧٠٠٠ فرد بالدار البيضاء و١١٠٠٠ بزناتة وفضالة[٦٤]. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل عملت سلطات الحماية على تكثيف عمليات التلقيح بالمدينة خلال النصف الثاني من نفس السنة، حيث استفاد حوالي ١٤٠٠٠٠ فرد من اللقاح خلال يومين

فقط، إذ عرف يوم ١٢ يونيو إجراء ١٢٩٩٤٥ لقاح، في حين سجل اليوم الموالي ١٠٠٠٠ جرعة، وذلك بغية حماية المدينة من أي خطر محتمل لوباء التيفوس[٦٥]. ويبرز هذا الرقم الكبير وكذلك سرعة العملية مدى الرغبة الكبيرة لسلطات الحماية في تطويق الوباء واجتثاث أثاره من المدينة. وتواصلت عملية اللقاح بلقاح بلان وزادت وثيرة توظيفه، لاسيما في ظل تيفوس الحرب العالمية الثانية، وهكذا أجري ٤٢٧١٠٠ لقاح سنة ١٩٤١، وارتفع العدد إلى ٩٩٧٥٠٠ سنة ١٩٤٢، نالت الدار البيضاء الجزء الكبير من الحصة[٦٦].

ولم يكن للقاح بلان تأثيرات جانبية كبيرة في صفوف المغاربة، باستثناء ارتفاع حرارة الجسم إلى ٤٠ درجة خلال الفترة ما بين ١٦ و٢١ يوم بعد اللقاح، والتي تنخفض إلى المعدل الطبيعي بعد ٤ إلى ٥ أيام[٦٧]، إضافة إلى مضاعفات أخرى بلغت نسبتها ٢%، اتخذت شكل تيفوس الفئران، وهو عبارة عن تيفوس خفيف يستمر حوالي ١٥ يوم بدون أعراض وغير قاتل[٦٨]، غير أنه سجلت في بعض الأحيان حالات شلل خلال وباء ١٩٣٧-1938 لم تتجاوز ١,٥% من مجموع الملقحين[٦٩]. وعلى عكس ذلك، خلف هذا اللقاح أثار جانبية كبيرة في أوساط الأوربيين، اتسمت بالخطورة والتكرار، مما فرض اقتصار التلقيح به على الأوربيين الذين يحتكون في عملهم مع المغاربة ولاسيما العاملون في المجال الطبي والمفتشين الذين يقومون بجولات أثناء الأوبئة ويشاركون في مكافحة المرض، وكذا مراقبي السلطات البلدية، إضافة لموظفي إدارة مكافحة الغش الذين يتنقلون في المدن، لكن شريطة ألا يتجاوز عمرهم الأربعين وأن يكونوا غير مصابين بمرض عضوي.[٧٠]

لقاح البروفيسور "ويجل دي لو" (**Weigl de Lwow**): لقاح ميت، ابتكره ويجل دي لو مدير المعهد البيولوجي ببولندا، يتم تحضيره مسبقا وقابل للتخزين، ويتطلب عناية كبيرة في تحضيره، مما منع الحصول على كميات كبيرة منه، كما أن سعر تكلفته مرتفع للغاية بلغ حوالي ٥٠ فرنكا للجرعة. ويتم التلقيح به في ثلاث حقن في ظرف ٣ إلى ٦ أيام، وخلف ردود فعل موضعية لم تتجاوز تلك التي تحدثها اللقاحات الأخرى. وقد تمت التوصية باستخدامه للأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن الأربعين سنة، ويمنح المناعة لثلثي الحالات لكن لمدة غير معروفة[٧١].

وأدت الآثار الجانبية السلبية من جهة، والمدى القصير لفعالية لقاحي بلان وويجل من جهة ثانية، إلى تخصيص لقاحات أخرى للأوربيين أهمها لقاح "ديروند" (Durand)، استعين به أول مرة سنة ١٩٤١ بإجراء ٨١٧٣ لقاح، واستفاد منه على وجه الخصوص الأشخاص الأكثر عرضة للعدوى من بينهم العديد من المسؤولين[٧٢].

وكانت عمليات التلقيح تتم في الوحدات الصحية وأحياء المدن، وبالأسواق الأسبوعية بالبوادي، وذلك بمساعدة السلطات التي تعمل على جمع السكان وفق برنامج زمني يحدده المكلفون بقطاع الصحة، واستعملت أحيانا القوة والقمع في مختلف مراحل العملية سواء لجلب السكان إلى مركز اللقاح أو لرص الصفوف، إضافة إلى عدم الفصل بين أماكن تطبيب الرجال والنساء والأطفال، مما أدى إلى نشوب نزاعات بين المغاربة من جهة، والعاملين في مراكز التلقيح والجنود الذين يشرفون على العملية من جهة ثانية[٧٣]، وجعل العديد من المغاربة يمتنعون عن الاستفادة منه، وذلك عن طريق الفرار من مناطق التجمع القسري ومقاطعة الأسواق[٧٤]، وهو ما ساهم في عرقلة تحقيق الأهداف المنشودة بشهادة ألبير عياش الذي أورد: "فعالية هذا التطبيب الجماهيري أصبحت محدودة نتيجة للحذر المتعاظم الذي أبداه المغاربة حيال التجميع التعسفي الذي كانت تأمر به السلطات المحلية دون أي اعتبار، وقد سجل أطباء الصحة العمومية في محاضرهم نفور المغاربة من هذا النوع من التجميع"[٧٥]. في المقابل، ردت سلطات الحماية على تعنت المغاربة بتطبيق ما عرف بديكتاتورية صحية وذلك باسم المصلحة العامة[٧٦].

خَاتمَةٌ

لقد تعاقب التيفوس على مدينة الدار البيضاء زمن الحماية بشكل كبير، وارتبط بشكل أساسي بتوالي سنوات الجفاف والقحط، وساهم في انتشاره موجات الهجرة نحو المدينة، وخلف العديد من المصابين والقتلى سواء في صفوف المغاربة أو الأوربيين. واتخذت السلطات الصحية عدة تدابير لمكافحة التيفوس بالمدينة، تنوعت بين الإدارية والتحسيسية والطبية، واستخدمت في تطبيقها وسائل متعددة، هيمن عليها طابع الترهيب من عنف وحملات بوليسية واعتقالات، مما أثار سخط المغاربة لاسيما أن معظم هذه الممارسات لم تكن تشمل الأوربيين حيث "كانت الحملات في المدن وعروض الغلي العنيفة والتلقيحات الإجبارية باستخدام لقاح بلان (...) تتسبب في بعض حالات عدم التحمل وفي حوادث قاتلة، وكان الأوربيون في إعفاء منه قد أثار استياء قويا في الأوساط المغربية[٧٧]". كما أن إجراءات إيقاف الوباء لم تكن لدوافع وقائية محضة، بل حضر فيها الهاجس الأمني الذي تجلى في ضبط المدينة وتحقيق الهدوء واستتباب الأمن.

الإحالات المرجعية:

(١) جورج قصيري، «التيفوس»، **مجلة المقتطف**، العدد ١، ١٩١٨، ص. ص. ٥٩-٦٠.

(٢) «مكافحة داء التيفوس»، **جريدة السعادة**، العدد ٤٣٥٣، ٢٠ يونيو ١٩٣٦، ص2.

(٣) جورج قصيري، «التيفوس»، مرجع سابق، ص. ٥٩.

(٤) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب خلال الحماية»، ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص. ٤٧٠.

(٥) جورج قصيري، «التيفوس»، مرجع سابق، ص. ص. ٦٠-٦١.

(6) G. Bidault, «Pluviométrie de l'année agricole 1944-1945», in **Bulletin Economique et Social du Maroc**, n° 26, 1945, pp .58-59

(٧) «الحالة الاقتصادية بالمغرب»، **جريدة السعادة**، العدد ٧٠٦، ١٧يناير ١٩١٤، ص. ١.

(٨) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص.٤٧٧.

(9) Christian Houel, **Mes aventures Marocaines**, Editions Maroc-demain, Casablanca, 1954, pp. 256-257.

(١٠) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص.٤٧٧.

(١١) «الحالة الصحية بالايالة الشريفة»، **جريدة السعادة**، العدد ٢٢٣٧، ١ يونيو ١٩٢١، ص. ١.

(١٢) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص.٤٧٧.

(١٣) «الحالة الصحية بالايالة الشريفة»، مرجع سابق، ص. ١.

(١٤) نفسه، نفس الصفحة.

(١٥) بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-١٩٥٦**، مطابع الرباط نت، الرباط، الطبعة الثانية، ٢٠٢٠، ص.١١٥. بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص. ص. ٤٧٨- 479.

(١٦) نفسه، ص. ص. 479-480.

(١٧)« Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938 », in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, Janvier- Juin 1939, p. 124.

(١٨) ألبير عياش، **الحركة النقابية في المغرب ١٩١٩ -1942**، ج. ١، ترجمة نور الدين سعودي، مراجعة العربي مفضال، مطبعة فضالة -المحمدية، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، ص 157 -١٥٨.

(19) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, op.cit, p.124.

(٢٠) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص. ٤٨٥.

(21) Gaud. M et Bonjean. M, «L'épidémie de typhus au Maroc d'octobre 1937 à septembre 1938», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, n°3-4, juillet-décembre1938, p. 20.

(22) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», **Maroc-Médical**, n°198, décembre 1938, p. 493.

(23) Ibidem.

(24) Ibidem.

(25) Ibidem.

(26) Ibidem.

(27) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», in **Maroc-Médical**, n° 180, juin 1937, p. 214.

(28) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938, **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, op.cit, p. 125.
(29) «Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé, de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, t.2, 1942, p. 130.
(30) Ibidem.
(31) «Rapport sur l'activité de la direction de la santé et de l'hygiène publics pendant l'année 1939, in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, t. 3-4, juillet-décembre1939, pp. 218-219.
(32) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé Publics et de l'Assistance pendant l'année1941», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, t.1,1941, p. 119.
(33) «Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé, de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, op.cit, p. 129.
(34) Ibidem.
(35) Ibid, p. 132.
(36) «Rapport de la Santé public de 1943», in **Bulletin de l'Institut d'Hygiène du Maroc**, 1943, p. 172.
(٣٧) بوجمعة رويان، «التيفوس بالمغرب...»، مرجع سابق، ص. ٤٩٠.
(٣٨) الدار البيضاء، **جريدة السعادة**، عدد ٦٩٥، ٦ دجنبر ١٩١٣، ص. ٣.
(39) Gaud et Bonjean, «La Prophylaxie du typhus au Maroc», in **Maroc-Médical**, n°198, décembre 1938, p. 498.
(40) Ibidem.
(٤١) المياه بالدار البيضاء، **جريدة السعادة**، العدد ٧٣٦، ١٣ ماي ١٩١٤، ص.٢.
(٤٢) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc », op.cit, p. 498. Ibid, pp. 498-500.
(43) Ibid, pp. 498-500.
(٤٤) Daniel Rivet, **Lyautey et l'institution du protectorat français au Maroc (1912-1925)**, t. 2, Paris, L'Harmattan, 1988, p. 236.
(٤٥) رضوان شعايبي، **صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين 1912-1956**، مطابع نت، الرباط، ٢٠١٦، ص. ١٩٠.
(46) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc », op.cit, p. 499.
(٤٧) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 489.
(48) «Rapport sur l'activité de la Direction de la Santé et de l'Hygiène Publics pendant l'année 1938», op.cit, p. 125.
(49) « Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé, de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942», op.cit, pp. 132-133.
(50) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», in **Maroc-Médical**, n°198, décembre 1938, p. 499
(51) Ibid, pp .495-497.
(52) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 486.
(53) Daniel Rivet, **Le Maroc de Lyautey à Mohammed V, le double visage du protectorat**, Ed. Porte d'Anfa, Casablanca, 2004, p. 281.
(54) Gaud et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, p. ٤٩٨.
(55) Christian Houel, **Mes aventures Marocaines**, op.cit, p. 257.
(56) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 214.
(57) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 489
(58) Gaud. et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc », op.cit, p. ٤٩٨
(59) Beros. M, «Prophylaxie du typhus a Casablanca», op.cit, p. 485.
(60) Gaud. et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, pp. 501-502.
(61) Ibid, pp. 500-501. «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», pp. 214-215.
(62) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.
(63) Ibidem.
(٦٤) صالح شكاك، «١٩٣٧ سنة الجوع»، ندوة المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب، **منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجديدة**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص. ٤٦٨.
(65) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.
(66) «Rapport sur l'activité des services de la direction santé, de la famille et de la jeunesse pendant l'année 1942, op.cit, p. 133.
(67) «A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.
(68) Gaud. et Bonjean, « La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, p. 500. « A propos du typhus exanthématique a Casablanca», op.cit, p. 215.
(٦٩) رضوان شعايبي، **صورة المغرب في كتابات الأطباء الفرنسيين 1912-1956**، مرجع سابق، ص. ١٩٢.
(70) Gaud. et Bonjean, «La Prophylaxie du typhus au Maroc», op.cit, pp. 500-501.
(71) Ibid, p. 501.
(٧٢) «Rapport sur l'activité des Services de Direction de la Santé, de la Famille et de la Jeunesse, pendant l'année 1942, » op.cit, p. 130.
(٧٣) بوجمعة رويان، **الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-١٩٥٦**، مرجع سابق، ص. ص. ٣١٦-٣١٧.
(٧٤) أحمد المكاوي، **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص. ١٢٦.
(٧٥) ألبير عياش، **المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين سعودي، مراجعة وتقديم إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، دار الخطابي للطباعة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص. ٣٣١.
(٧٦) أحمد المكاوي، **الدور الاختراقي والاستعماري للطبابة الأوربية في المغرب**، مرجع سابق، ص. ١٢٦.
(٧٧) ألبير عياش، **الحركة النقابية في المغرب**... ، مرجع سابق، ص. ١٥٨.